

مفدى زكريا..

شاعر العربية والإسلام

وُلد شاعرنا محمد مفدى زكريا
 ١٩٠٨م في قرية بني يزقن في
 منطقة الميزاب بالجنوب الجزائري
 وقد تلقى تعليمه متنقلاً بين مختلف
 المدارس والمعاهد ابتداءً من الكتّاب
 الذي حفظ فيه القرآن وتعلم القراءة
 والكتابة وانتهاءً بمعهد الزيتونة
 والمعهد الخلدوني في تونس، وأتيح
 له خلال مقامه في البلد الشقيق
 الاغتراف من نبع اللغة والثقافة
 العربية، واستيعاب تراثها الشعري،
 والاطلاع على قصائد شعراء مدرسة
 الإحياء وكذلك المدرسة الرومانسية،
 فكان لذلك أثره في إثراء موهبته
 واتباعه المنهج الفني الذي قامت
 عليه المدرسة الأولى بصفة خاصة
 كما يبدو جلياً في شعره.. كما أتيح
 له متابعة الصحف العربية الوافدة
 من مصر إلى تونس، وما حفلت به
 صفحاتها من مقالات بأقلام رواد
 النهضة والإصلاح والتحرير،
 وانعكس هذا بدوره على الموضوعات
 والأفكار والمشاعر التي عبّر عنها
 مفدى زكريا.



الام.. في الجزائر

بقلم: الدكتور

حسن فتح الباب

لما عاد من تونس إلى الجزائر المنكوبة بالاستعمار لم يتردد في اللحاق بركب حركة الإصلاح والاستقلال، فانضم إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وكان من شعرائها المرموقين، وقد تتابعت قصائده بصحفها ومجلاتها، ثم رافق الحركة السياسية الوطنية مناضلاً بقلمه ولسانه، فكان شاعر الحرية والنضال والدعوة إلى التضحية والفداء في سبيل عزة الوطن وحرية. ولُقّب بابن تومرت، وهو اسم مؤسس دولة الموحديين في المغرب

■ ■ ■ اللهب المقدس:

لما انطلقت ثورة الفاتح من تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٩٥٤ م التحق بصفوفها محارباً بقلمه ولقب بشاعر الثورة التحريرية، وقد كلفه ذلك تجريده من حريته سنوات طويلة، رُجّ فيها في غياهب السجون. وقد نظم كثيراً من قصائده وأناشيده في الزنازين، وما ثناه هذا القمع عن عزمه. وتطالع القارئ أنفاسه المتهدجة الثائرة في كل صفحة من صفحات أشعاره النضالية في ديوانه الكبير (اللهب المقدس). فالثورة الجزائرية هي الينبوع المتفجر في قصيده؛ لأنها القضية الأساسية التي وقف عليها فنه وحياته، والتي ألهمته حرارة أنفاسه.

فلا غرو أن يقترن اسم مفدى زكريا على صفحة غلاف هذا الديوان بعبارة (شاعر الثورة الجزائرية) فهي قوله حق بلا منازع، لأنها الجذوة التي ألهمت وجدانه وفكره، منذ عرف طريقه إلى

عالم الكلمة حتى غداً شاعر الحرية والنضال. وبهذا الموقع ينتسب في رأينا إلى طبقة شعراء الحماسة العرب. فشعره هو الثورة، والثورة هي شعره، ومن ثم أهدى ديوانه (إلى الدقيقة الواحدة من فاتح نوفمبر ١٩٥٤ م.. إلى أول أصبع جزائرية حركها الأزل وضغط بها القدر الرابض على زناد البعث لتطلق القذيفة المسحورة، الأولى، فتسعر «اللهب المقدس» في دروب بلادي الحاملة وأحراشها السكرى، ورمالها العطشى، وجبالها الغضبي).

ويقول في كلمة التقديم أيضاً إن «اللهب المقدس» هو ديوان الثورة الجزائرية - التي يسميها ثورة العرب في الجزائر - بواقعتها الصريح، وبطولاتها الأسطورية، وأحداثها الصارخة، وهو «شاشة تليفزيون» تبرز إرادة شعب استجاب له القدر. ويلاحظ أن العبارة الأخيرة تضمنين لبيت أبي القاسم الشابي المشهور. ويقتبس مفدى زكريا وصف أمير الشعراء أحمد شوقي للشعراء (أنتم الناس أيها الشعراء) كما يُعرّض بشعر نزار قباني في ديوان (طفولة نهد)، وذلك في قوله: (قد لا يجد عشاق ما يسمونه بالشعر الجديد في «اللهب المقدس» ما يشبع غرائزهم المشبوبة في جحيم النهود والبراعم والفساتين، ولكن سيجد فيه (الشعراء الناس) صلة رحم وثقى بعزّ أمجادهم، وتجاوبا صادقاً مع مشاعر العروبة الزاحفة في كل بلد عربي يقدر ما للكلمة «عروبة» من عظمة وجلال، (وعسى أن أكون قد أرضيت ضميري وثورة بلادي وعروبتني)

يستهل مفدى زكريا ديوانه «اللهب المقدس» بقصيدة «الذبيح الصاعد» يسبقها هذا التمهيد: (نظمت بسجن بربروس في القاعة التاسعة في الهزيع الثاني من الليل أثناء تنفيذ حكم الإعدام على أول شهيد دشّن المقصلة، وهو المرحوم أحمد زبانا، وذلك ليلة ١٨ يوليو ١٩٥٥ م)، وهذه القصيدة - بمقياس الشعر العمودي - تبلغ مستوى القصائد الجياد لرواد مدرسة الإحياء، وهي تذكرنا بمراثي شوقي وحافظ ونظرائهما للأبطال الذين فقدتهم الأمة العربية، فكانوا مشعلاً لنضالها، ورمزاً لقدسية تراثها. والأبيات تعقب بعبير المثل الإسلامية

■ بدأ

تعليمه

في

الكتاب..

وأتمه

بالمعهد

الخلدوني

في تونس

وكان من

أبرز

شعراء

جمعية

العلماء

المسلمين

بالجزائر.



■ أحمد شوقي

الأصيلة التي تتجلى في عظمة الاستشهاد وخلود الشهيد الذي يفدي بروحه وطنه وعقيدته، وتصور الروح الشعبية الجزائرية في إيمانها بالإسلام والعروبة، وهي تخوض غمار حرب حشد في مواجهتها العدو أبشع آلات الدمار وأشدّها فتكا. وقد دل على تلك الروح إطلاق اسم «مجاهد» على جندي جيش التحرير الوطني، وعدم انتحار هذا المجاهد في أقسى حالات الشدة، وموقف الأم من استشهاد ولدها، والارتباط الروحي بالعالم العلوي لدى المجاهد.

ومن ملامح هذه الروح الإسلامية في قصيدة مفدى زكريا «الذبيح الصاعد» تأثره الظاهر بالقرآن الكريم وبالتراث الإسلامي. فالشهيد الذي يرثيه ذبيح صاعد إلى السماء كالمسيح عيسى بن مريم عليه السلام ومن ثم نراه في القصيدة مبتسما مستبشرا، كما يشبهه الشاعر حيناً بموسى كليم الله عليه السلام وحيناً آخر بجبريل الروح الأمين، ثم يعرج بنا على أرض الواقع، فيحدثنا بلسان أحمد زيانا الشهيد العظيم وهو يلقي وصيته على رفاقه قبل الوداع:

قام يختال كالمسيح وثيلاً

يتهادى نشوان، يتلو النشيدا

باسم الثغر كالملاك أو

كالطفل يستقبل الصباح الجديد

شامخاً أنفه جلالاً وتيهها

رافعاً رأسه يناجي الخلود

حالم كالكليم كلّمه المجد

فشد الحبال يبغى الصعود

وتسامى كالأرواح في ليلة القدر

سلاماً يشع في الكون عيداً

وامتطى مذبج البطولة مغرّاجاً

ووافى السماء يرجو المزيد

وتعالى مثل المؤذن يتلو

كلمات الهدى ويدعو الرقود

صرخة تُرجف العوالم منها

ونداء مضي يهز الوجود:

«اشنقوني فلست أخشى حبلاً

واصلبوني فلست أخشى حديداً

أنا إن مت فالجزائر تحيا

حرّة مستقلة لن تبيدا»

ويستخدم مفدى زكريا أسلوب الاقتباس من الآيات القرآنية، وهي سمة مميزة لشعره تشهد بقدرته على الاستقاء من هذا النبع الفياض الذي نعرفه لدى الشعراء الذين حفظوا كتاب الله واستوعبوا التراث اللغوي والتعبيري في الأدب العربي بما وهبوا من طاقة شعرية، ويظهر في قصيدة الذبيح الصاعد مدى توفيقه في الاقتباس من القرآن كما في قوله:

زعموا قتله وما صلبوه

ليس في الخالدين عيسى الوحيد

إذ يومئ الشاعر إلى الآية القرآنية: ﴿وما قتلوه

وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾. ثم يقول معبراً عن

صعود الشهيد إلى السموات العلا مستخدماً ألفاظاً

من كتاب الله، ومتخيلاً رسول السماء جبريل وهو

يحمل أحمد زيانا بعد استشهاد كائنه الطائر المحلق

إلى عنان الفلك في طريقه بما حمل إلى الفردوس:

«لله جبرئيل تحت جناحيه

إلى المنتهى رضياً شهيداً»

■ تجميع جميلات الجزائر الفدايات:

وفي الجزء الثاني من القصيدة يمجّد مفدى

الثورة والثوار «من كهول يقودها الموت للنصر»،

«وشباب مثل النسور ترامي لا يبالي بروحه أن

يجود»، «وشيوخ محنكين كرام ملئت حكمة ورأيا

سديداً» ويسجل الشاعر الدور البطولي الذي قامت

به المرأة الجزائرية في ملحمة الجهاد. فمن ذا الذي

ينسى الفدائيتين جميلة بوعزة وجميلة بوباشا

رحمهما الله، والمناضلة جميلة بوحيرد حفظها

الله، وغيرهن من الفتيات اللاتي انضممن إلى

الكتائب المقاتلة في جبال الأوراس اقتداء بالمجاهدات

المسلمات في عهد النبي ﷺ، وفي طليعتهن السيدة

أسماء بنت أبي بكر الشهيرة باسم ذات النطاقين،

إذ كانت تحمل إلى النبي وصاحبه في الغار الزاد

والماء في نطاقيهما، والصحابية الجليلة نسيبة بنت

كعب الأنصارية التي حاربت بسيفها المشركين في

غزوة أحد، بعد أن شقت الصفوف لتكون إلى جانب

■ تأثر
مفدى في
بعض
قصائده
بشاعر
النيل..
حافظ
إبراهيم.

ويُبيح المستعمرون حماها
ويظل ابنها طريداً شريداً؟
يا ضلال المستضعفين إذا هم
ألقوا الذل واستطابوا القعودا
ليس في الأرض بقعة لذل
لعنته السما فعاش طريدا
ويستطرد في إعلان غضبة الأرض والسما على
القاعدين عن القتال ذوداً عن حرمة أنفسهم
وديارهم، مقتبساً مرة أخرى من المعين القرآني في
تصوير الطوفان ونجاة النبي نوح عليه السلام:
﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي﴾
إذ يقول مفدى زكريا متأثراً بالألفاظ والصور التي
وردت في الآية:
يا سماء اصعقي الجبان ويا أرض
ابلعي القانع الخنوع البليدا.

■ من عالم القيود والسود:

بقصيدة (الذبيح الصاعد) وبالقصائد الثورية
الأخرى التي تضمنها ديوان (اللهب المقدس) يعد
مفدى زكريا من أكبر شعراء المقاومة في الشعر
العربي الحديث. وإذا كان سجل هذا الشعر يحفظ
بين دفتيه إلى جانب مراثي الأبطال مآكته شعراء
الحرية المسجونون من قصائد يناجون بها أحبابهم،
ويعبرون عن صمودهم ويقيهم بالنصر، فإن
أشعار مفدى التي كتبها في عالم القيود والسود
تؤله لأن يدرج في هذا السجل، ومن هذه الأشعار
قصيدته (زنزانة العذاب رقم ٧٣) التي يقول في
مطلعها:

سيان عندي مفتوح ومنغلق
يا سجن بابك أم شئت به الحلق
أم السياط بها الجلال يلهبني
أم خازن النار يكويني فأصطلق
سرى عظيم فلا التعذيب يسمح لي
نطقاً ورب ضعاف دون ذا نطقوا
يا سجن ما أنت؟ لا أخشاك تعرفني
من يحذق البحر لا يحذق به الفرق
ويشترك مفدى زكريا مع كثير من شعراء
المقاومة السجناء في مخاطبتهم من وراء الأصفاة

رسول الله درعاً ووقاء له، وتلك أعلى مراتب الغداء.
ومن ثم صور مفدى زكريا كفاح الفدائيات
الجزائريات بقوله الدال على فهمه الصحيح
للإسلام من حيث عدم التفرقة بين الجنسين:
وصبايا مخدرات تبارى
كاللبوءات تستفز الجنودا
شاركت في الجهاد آدم حواء
ومدت معاصمها وزنودا
أعملت في الجراح أنملها اللدن
وفي الحرب غصنها الأملودا
وعلى منوال شعراء العرب القدامى والمحدثين
أيضاً من مدرسة الإحياء الشعري يسوق شاعرنا
الحكم والأمثال التي تحث على رفض الضيم
والهوان مثل قوله:
وإذا الشعب داهمته الرزايا
هب مستصرخاً وعاف الركودا
دولة الظلم للزوال إذا ما
أصبح الحر للطغام مسودا
ليس في الأرض سادة وعبيد
كيف نرضى بأن نعيش عبيدا؟
ويبدو تأثره بشاعر النيل حافظ إبراهيم
واضحاً في كثير من أبيات القصيدة ولاشك أن
الشعور الوطني الجامع بينهما هو علة هذا التأثير.
بل إنه يستعير أحياناً الألفاظ نفسها التي بدأ بها
حافظ بعض أبياته كما في قصيدته «مصر تتحدث
عن نفسها» إذ يقول حافظ مندداً بالاحتلال
البريطاني لمصر:
أمن العدل أنهم يطلقون الأسد
منهم وأن تقيّد أسدي؟
أمن العدل أنهم يردون الماء
صفوا وأن يكدر وردي؟
ويقول مفدى زكريا:
أمن العدل صاحب الدار يشقى
ودخيل بها يعيش سعيداً؟
أمن العدل صاحب الدار يعرى
وغريب يحتل قصرأ مشيداً؟
ويجوع ابنها فيعدم قوتا
وينال الدخيل عيشاً رغيداً؟



■ شاعر النيل
حافظ إبراهيم

أطياف زوجاتهم وأبنائهم وبناتهم المغيبين عن
عيونهم فينادي مفدى زوجته من سجن بربروس
الرهيب في الجزائر العاصمة سنة ١٩٥٥ م إذ
يقول:

سلوى أناديك (سلوى) مثلهم خطأ
لو أنهم انصفوا كان اسمك الرَّمقُ
يا فتنة الروح هلا تذكرين فتى
ما ضره السجن إلا أنه ومق؟
هل تذكرين إذا ما الحظ حالفنا
إليك اهتف يا (سلوى) فنتفق؟
أم تذكرين ولحن الروح يطربنا
إذ نفرس الرمل في الشاطي ونعتنق
وتغرب الشمس تطوي في ملاءتها
سرين أشفق أن يغشيهما الشفق
وكم سهرنا وعين النجم تحرسنا
إذ نلتقي كالرؤى حيناً ونفترق
والليل يكتم في ظلمائه شبحاً
ياؤي إلى شبح ضاقت به الطرق
ياليل كم لك في الأطواء من عجب
ياليل حالك حالي أمرنا نسق

□□

ويمتزج الحب بالثورة في شعر مفدى زكريا،
شأنه في ذلك شأن الشعراء المناضلين. ولا عجب
أن يكون شعراء المقاومة من أعظم شعراء الحب في
كل زمان ومكان، ويكفي أن نتذكر غزليات عنتره
ابن شداد فارس قبيلة بني ذبيان قبل الإسلام في
حبيبته عبله. ونبين من أبيات شاعرنا الآتية في
قصيدته المشار إليها أنه لا يشوبها ابتذال أو فحش
مثل بعض الشعراء، إذ تعبر عن عاطفة سامية
ومشاعر إنسانية نبيلة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ومن
آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا
إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾.

وهكذا يتغنى شاعرنا بجمال سلوى وما يكنه لها
من حب عفيف يمثل ما بينهما من مودة ورحمة:

(سلوى) أناجيك (سلوى) هل تجاوبني
(سلوى) فإن لساني باسمها دلقُ
رُدِّي عليّ أهازيجي مَوْقُوعَةً
فقد أعارك وزنا قلبي الخَفِقُ

ورتلّوها تسابيحاً مقدسةً
في معبد الحب يسجدُ عندهما الأَفُقُ
واستأذني في رسالات الهوى قمراً
يرنو إليه كالنا حين يتسَّق
إني رأيت أخاك البدر ذا ثقة
جلّت أياديه في دنيا الألى عشقوا
ويجيد شاعر «اللهب المقدس» استعمال تقنيات
الشعر القديم مثل حسن التخلص من غرض إلى
آخر في القصيدة، فهو ينتقل في قصيدة (زناينة
العذاب رقم ٧٣) من الغزل إلى الحماسة وذلك في
قوله:

يالائمي في هواها إنها قبس
من الجزائر والأمثال تنطبق.
ثم يسترسل متدفقاً كأمواج البحر الهادر وهو
يصور حبه لوطنه التأثر بعد أن صور عاطفته نحو
زوجته مازجا بين الشعورين في وحدة واحدة
ومؤلفاً بين جمال الحبيبة وجمال بلاده
بنت الجزائر أهوى فيك طلعتها
فكل ما فيك من أوصافها خلق
أرض الجزائر في إفريقيا قدس
رحابها من رحاب الخلد إن صدقوا
ولعله هنا متأثر بقول شوقي الماثور في عشق
الوطن من قصيدته التي كتبها في منفاه بالاندلس
والتي عارض فيها البحثري في سيئته المشهورة
التي وصف بها إيوان كسرى بعد أن انتصر
المسلمون على الفرس:

وطني لو شغلت بالخلد عنه

نازعني إليه في الخلد نفسي
ومن فيض إيمانه بعروبة الجزائر التي أراد
المستعمر أن يستأصل جذورها الضاربة في أعماق
التاريخ منذ الفتح العربي الإسلامي يبدع شاعرنا
أنغامه العذبة الجياشة، واصفاً الجزائر بأنها قلب
العروبة:

قلب العروبة لم يعصف بنخوتها
عسف ولا نال من إيمانها رهق
نادى المنادي إلى التحرير يدفعها
فاستصرخت من قيود الحجر تنعتق
ثارت على الظلم مثل السيل جارفة

■ يعد
مفدى
زكريا
من أكبر
شعراء
المقاومة
في الشعر
العربي
الحديث.

الصديد الذي يحيط بها. ولقد اخترعت الإمبريالية والصهيونية والعنصرية وكل أعداء الشعوب أعتى أدوات القتل والتدمير، ولكنها مازالت حتى اليوم عاجزة عن اغتيال الكلمة الحرة، والكلمة الحرة هي الإنسان، وهي مقاومة الشر والقبح والهوان.

وهكذا ينظم مفدى زكريا في سجن البرواقية قصيدته (وقال الله) مخلصاً الذكرى الثالثة للثورة الجزائرية، وتلقى بالنيابة عنه في مهرجان الذكرى الذي أقيم بتونس في غرة نوفمبر ١٩٥٧م:

دعا التاريخ ليلك فاستجابا

(نقمبر) هل وفيت لنا النصابا؟

وهل سمع المجيب نداء شعب

فكانت ليلة القدر الجوابا؟

وتشيع أصداء العاطفة الدينية المترجزة في نفس مفدى زكريا بالعاطفة الوطنية في ثنايا هذه القصيدة التي صاغها شاعرنا على منوال قصيدة شوقي في المديح النبوي التي مطلعها:

سلوا قلبي غداة سلا وتابا

لعل على الجمال له عتابا

ومن ثم يردد مفدى الفاظا ويستعمل صورا مستمدة من السور القرآنية نظراً لما يراه من قدسية ثورة التحرير لأنها جهاد في سبيل الله، فيشبه ليلة اندلاع الثورة بليلة القدر، وذلك تعبير مجازي لا تثريب على الشاعر في استعماله، فذلك هو سحر البيان، ولا سيما إذا عرفنا أنه قوي الإيمان بالإسلام:

تبارك ليلك الميمون نجما

ولاح ضيأؤه هتك الحجابا

زكت وثباته عن ألف شهر

قضاها الشعب يلتحق السرابا

تجلى ضاحك القسمات تحكي

كواكبُه قنابلُه لهايا

بناشئة هناك أشد وطأ

وأقوم منطقاً وأحد نابا

ملائك بالفواتك نازلات

بإذن الله أرسلها خطابا

وهزت ثورة التحرير شعوبا

فهب، الشعب ينصب أنصابا

فلا الفيالق تثنيها ولا الفرق

جيش إلى النصر تحدود ملائكة

مُسَوِّمون بموج الموت يندفق

ويفاخر بشعبه الذي ثار على غاصبي أرضه وحمل أبناؤه المجاهدون السلاح دفاعاً عنها وذوداً عن دينها ولغتها بقيادة جبهة التحرير الجزائرية. ويشيد بالبطولات والتضحيات الجسيمة التي قدمها الثوار، واثقاً أن البقاء لهم والموت للمستعمرين وإن طال المدى، فحياة الشعب تعادل حياة الحق والعدل والكرامة:

وفتية هرعوا للشرق يعضدهم

إن يُصعقوا فكان الكون ينصعق

والشعب يسبح للعليا على دمه

وللتبرع بالأرواح يستبق

لم يثنه دون إدراك المنى رهق

وإن همو أحرقوا بالنار أو شُنقوا

■ في الذكرى الثالثة للثورة:

من سجن بربروس يساق الشاعر المجاهد إلى سجن البرواقية سنة ١٩٥٧، ولكن المستعمرين الجلادين لا يملكون أن يخمدوا صوته، ومن ثم يحمل قلبه وكلمته من محبس إلى محبس، ويظل يغني لثورة التحرير، ويتجاوز غناؤه الأسوار كأنه طائر طليق. فالكلمة أو النغمة الثائرة في سبيل الحق تعرف كيف تشق لها طريقاً إلى القلوب والعقول رغم كل الحواجز والقضبان الحديدية.

وتزدهر بعد أن يودع هو الحياة، ليستمر بها خفقات في ضلوع أبناء شعبه ووطنه، وتتردد أنفاسه في صدور رفقاء عالمه، وتتواصل الأجيال من خلالها.

إن كلمة المبدع المناضل هي ضمير الشعب ووجدانه، والشعب خالد إلى الأبد، وهي عصفور أخضر مستدق الصغر، ولكن صوته أقوى وأبقى أثراً من رعود الطغاة المسلحين بالحديد والنار. إنها هواء نقي يتسلل إلى رئة المدن والقرى والواحات والصحاري المقهورة، ولا يملك العدو الجائر الغادر وسيلة لاعتقال هذا الهواء الذي تتنفسه الجماهير فتنتعش خلاياها المكدودة، وتقوى على مقاومة كل

تنزل روحها من كل أمر
بأحرار الجزائر قد أهابا
وبُرزت الكواعب قاصرات
فرحن يخضن للموت العبابا
وقال الله: كن يا شعب حربا
على من ظل لا يرعى جنابا
وقال الشعب: كن يارب عونا
على من بات لا يخشى عقابا

ومن وحي التاريخ الإسلامي يرسم الشاعر هذه
الصور الأخاذة المعبرة عن حرب الجزائر، مؤلفا بين
الماضي العريق والحاضر المجيد، ومرجعا نغم
قصيدة أمير الشعراء.

وحرب للكرامة في بلاد
مضت تفتك عزتها غلابا
وأوفدت الرصاص ينوب عنها
يناقش غاصب الحق الحسابا
فأيقظت القنابل من تعامى
وأسدل فوق ناظره النقابا
وفجّر (بئر مسعود) بلال
فأذن واستمال له الرقابا
وكبر للجهاد بها فقمنا
نخضب بالدم الغالي الترابا
شقنا فوقها للمجد طرقا
وفتحن بها للخلد بابا

■ من وحي الطبيعة الصحراوية:

ويتألق مفدى حتى يبلغ ذروة شعرية سامقة
وهو ينتقل من تصوير الثورة إلى وصف جمال
الطبيعة الصحراوية وسحرها في لوحات فنية
باهرة. وحين يصف النخيل وعراجينه التي تحمل
التمر يضمن أبياته العبارات المستقاة من القرآن في
سيرة السيدة مريم العذراء. وتشهد هذه الأبيات
بعبقرية شاعرنا واستيعابه مظاهر الواحات
الجنوبية في الجزائر وروحها وتقاليدها أهلها
وإنجابها كثيرا من العلماء والأدباء.
وفي صحرائنا تبهر وتمر
كلا الذهبن راق بها وطابا

وفي صحرائنا شعر وسحر
كلا الملكين خط بها الركابا
وفي صحرائنا أدب وعلم
زكى بهما المثقف واستطابا
وفي واحاتنا ظل ظليل
تفور بها نواعرها حبابا
وفوق سمائها قمر منير
نطارحه الأحاديث العذابا
وتحت خيامها انبجست عيون
أسالت من فم الدنيا لعابا
يراقص رملها الذهبي شمساً
تودعه فيمنعها الذهابا
وهزت مريم العذرا نخيلاً
فأسقطت القلودج والرضابا
عراجن كالمجرة مشرقا

عسألجها انسكن بها انسكابا
ويتفوق مفدى على نفسه في وصف الراعي
الشادي على مزماره بأبيات مناسبة كأنها كتبت
نفسها بنفسها، وهي تتسم بالجزالة وبراعة
التصوير في حين تتسم قصائد أبي القاسم
الشابي التي صور فيها الراعي بالرقعة الرومانسية.
وكلا الشعارين اللذين ينتميان إلى المغرب العربي
من أبرع الشعراء في هذا المجال، وقد أضافا إلى
الشعر العربي الحديث نفحات شذية من وحي
الطبيعة الرعوية، وهما وبعض الشعراء
الرومانسيون يناظرون شعراء البحيرة الانجليز
وردزورث وشيلي وكييتس الذين خلدهم
قصائدهم في وصف المروج والغابات والبحيرات.
وغني عن الذكر أن ديوان الشعر العربي ولاسيما
في العصر الأندلسي يزخر بمثل هذا الشعر، كما
عرفناه أيضا لدى شعراء ما قبل الإسلام وفي
العصر العباسي. ويمتاز مفدى زكريا بأنه تناول
في القصيدة المنود عنها وصف الطبيعة وإنسانها
وحيواتها، فهو يصف راعي الأغنام النافخ في نايه
بقوله:

يدغدغ تحتها الغنم نايها
فينطق من فم الغنم الربابا
يدلي في الغدير الحلو ساقا



■ المجاهد عبد الحميد بن باديس

■ جعلت
كتائب
جيش
التحرير
جهاد
المستعمر
 وإعادة
البلاد إلى
نهج
العروبة..
مبدأ
مقدساً.

كلثوم التغلبي في معلقته النونية التي يقول فيها
متغنياً بمفاخر قومه ومآثرهم:
وقد علم القبيائل من معد
إذا قُبيب بأبطحها بُنيناً
بأننا المطعمون إذا قدرنا
وأنا المهلكون إذا ابتلينا
وأنا المانعون لما أردنا
وأنا النازلون بحيث شينا
وأنا التاركون إذا سخطنا
وأنا الآخذون إذا رضىنا
إذ يقول الشاعر الجزائري على الوزن نفسه
والنغمة الرنانة العالية الخطابية التي تناسب
الغرض من القصيدة، وكأنه يستحي أمجاد الماضي
ويؤكد عروية بلده واتصال حاضرهما بهذا الماضي
الذي تريد فرنسا أن تطمسه وتمحق إرث الفروسية
فيه:

ونحن العادلون إذا حكمنا

سلوا التاريخ عنا والكتابا

ونحن الصادقون إذا نطقنا

ألفنا الصدق طبعاً لا اكتساباً

ثم يسترسل مازجاً بين التاريخ المجيد الغابر وبين
الحاضر الذي يتحلى فيه الشعب بالفضائل العربية
الإسلامية من نبل وشرف ومروءة واحترام
للأديان الأخرى، مكذباً بذلك دعاوى المستعمرين
التي تنسب إلى الجزائريين التعصب الديني زوراً
وبهتاناً، لتغيير الشعوب والدول الغربية منها: حتى
لاتناصرهم في حربهم العادلة، وتتعاون سياسياً
مع عدوهم المستعمر، وهي فرية مازالت مستشرية
حتى اليوم إذ يتهم الأوروبيون والأمريكيون
الإسلام وأهله بالتعصب والإرهاب وهم منه براء.
وصدق الله العظيم: ﴿كبرت كلمة تخرج من
أفواههم إن يقولون إلا كذباً﴾ عن هذه الحقيقة
يقول مفدى:

وعن أجدادنا الأشرف إنا

ورثنا النبل والشرف اللبابا

كرام للضيوف إذا استقاموا

بسطنا في وجوههم الرحابا

ونحترم الكنيسة في حمامنا

وبالكفين يغترف الشرابا
ويستلقي بحفته يناعي
إله العرش يسأله متابا
قريير العين بالفلوات أضحي
يعاف الناس منذ ألف الذئابا
فما يدري بجنته نفاقا
ولا كذبا ولا خان الصحابا
ونتبين من هذه الأبيات أن شاعرنا قد صبَّ رحيقاً
جديداً في كأس قصائد الطبيعة الصحراوية
ورعيانها بتصويره الحياة اليومية الواقعية من
الراعي عازف الناي، وحركاته الظاهرة، وطباعه
النفسية، من إلف للوحدة، ونفور من الناس ومن
براءة وتعفف عن الدنيا، وائتلاف بالكائنات حوله؛
من حيوانات أليفة وأخرى وحشية كالذئاب،
مناقضا بهذه الروح سكان الحضر الذين لا يعرفون
إلا متع الحياة الدنيا المادية.

ويبهرننا مفدى زكريا بلوحة تصويرية أخرى
لحادي الإبل وسائق الجياد وهو يتقدم القافلة في
عرض صحراء الجزائر الحافلة بآبار النفط والتي
كانت بسبب هذه الثروة مناطق عسكرية يحرم
المستعمر ولوجها؛ حتى تكون حكراً له حراماً على
أهلها. ومن المعلوم أن فرنسا في أثناء احتلالها
للجزائر قد أجرت تجارب ذرية في تلك المناطق
النائية.

وقد اختار الشاعر وزناً وقافية يوافقان إيقاع
سناكب الخيل وغناء الحادي:

وفوق منابع البترول حاد

يناعي العيس والخيّل العربا

على خطواتها تشوان يشدو

فتطوي في مراحلها اليبابا

تساجله الأغاني وهي تسعى

أدسن الشعب أم دسن الشعابا؟

■ المجد للجزائر وكفاحها المسلح:

يخلص مفدى زكريا من تصوير الراعي والحادي
إلى الفخر ببلاده وثورتها التحريرية، فيستعمل
ضمير المتكلمين متأثراً بالشاعر الجاهلي عمرو بن

ونحترم الصوامع والقبابا
وكان محمد نسبا لعيسى
وكان الحق بينهما انتسابا
وموسى كان يأمر بالتآخي

وحذر قوميه مكرًا وعابا
ويبلغ إعجاب شاعرنا وتأثره بشوقي الذروة، إذ
يختار بعض جملة الشعرية عنوانا لإحدى قصائده،
فيسمى منظومته بسجن بربروس في فبراير سنة
١٩٥٧م بمنظمة خذلان المنظمة الدولية لقضية
الجزائر في دورتها الثالثة عشرة (وتعطلت لغة
الكلام) من قول شوقي في غزليته المشهورة:

وتعطلت لغة الكلام وخاطبت

عيني في لغة الهوى عيناك

بيد أن مفدى - بصفته شاعرا ثوريا - يبدع في
تحرير المضمون فينقله من باب الحب والغزل
والتشبيب إلى باب الحرب المتمثلة في الكفاح
الشعبي المسلح بالجزائر، وهو يستهل قصيدته بهذا
المطلع:

نطق الرصاص فما يباح كلام

وجرى القصاص فما يتاح ملام

ومن هذا القبيل أيضا قول مفدى في قصيدة
بعنوان «حروفيها حمراء»: (اعتراف، فدولة،
فسلام، فكلام، فموعد، فجلاء)، معارضا بيت
شوقي المشهور: (نظرة، فابتسامة، فسلام، فكلام،
فموعد، فلقاء).

ثم يمتح شاعر الجزائر من ينبوع أبي تمام في
قصيدته الذائعة التي يمتدح بها الخليفة المعتصم
بعد فتح عمورية، ساخرا من العرافين الذين رأوا
في الطالع أن يوم الحرب الذي حدده المعتصم يوم
شؤم على جنوده، فاستفتح أبو تمام قصيدته
بقوله:

السيف أصدق أنباء من الكتب

في حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف في

متونهن جلاء الشك والريب

فعلى هذا المنوال لفظا ومعنى أدار مفدى زكريا
محور قصيدته في مطالعها، إذ استعار رداء الشاعر
الطائي، سائرا على نهجه في استخدام البيان

والبديع ولاسيما الجناس مثل الرصاص
والقصاص، الصفائح والصحائف، المكاتب
والكتائب، المحافل والجحافل، اللوائح واللوائح
والروائح، الكلام والكلام، الأعلام بمعنى الجبال
والأعلام بمعنى الرايات:

السيف أصدق لهجة من أحرف

كُتبت فكان بيانها، الإبهام

والنار أصدق حجة فاكتب بها

ماشئت تصعق عندها الأحلام

إن الصحائف للصفائح أمرها

والحبر حرب والكلام كلام

عز المكاتب في الحياة كتائب

زحفت كأن جنودها الأعلام

خير المحافل في الزمان حجافل

رُفعت على وحداتها الأعلام

ولوافج النيران خير لوائح

رُفعت لمن في ناظريه ركام

وروائح البارود مسك نوافج

سجرت لمن في منخريه زكام

والحق والرشاش إن نطقا معا

عنت الوجوه وخرت الأصنام

ويلاحظ أن عبارة (عنت الوجوه) من النبع

القرآني، ومثلها اقتباس آخر في البيت الآتي استمدّه

من كتاب الله بعد أن اغترف من عيون شعر أبي

تمام:

والزرع أخرج في الجزائر شطاه

فمضى وهب إلى الحصاد كرام

ويتأجج النغم الشعري متفجرا حرارة وتوهجا

حتى يتحول إلى لعنات يرم بها الشاعر

المستعمرين الطغاة، وصرخات تحمل معاناة شعب

قدم أكثر من مليون شهيد فداء لعروبته وإسلامه

وحريته في أبيات لا تنسى على تعاقب الأزمان،

وتعد شاهد صدق على ثورية مفدى زكريا وعلى

شاعريته الأصيلة معا.

والشعب شق إلى الخلود طريقه

فوق الجماجم والخميس لُهام

لا النار لا التقتيل يثني عزمه



مفدى زكريا

شاعر الثورة الجزائرية

دكتور حسن فتح الباب

لغة عربية

غلاف كتاب صدر عنه بعنوان..
شاعر الثورة الجزائرية

■ كان للدين الإسلامي الباع الطويل في شحذ الهمم والتفاف الشعب حول قادة الجهاد.

الإنساني للإسلام، ونشرا التعليم باللغة العربية التي استخدم الاستعمار كل الوسائل للقضاء عليها وطمس الشخصية الجزائرية.

■ وحدة النسبين الجزائريين والبلاد العربية:

يختتم شاعر «الذهب المقدس» قصيدته (وتعطلت لغة الكلام) بالآيات الآتية
يا أمة العرب الكرام كرامة
لك في الجزائر حرمة وضمائم
في كل أرض للعروبة عندنا
رحم تشابك عندها الأرحام
إن صاح في أرض الجزائر صائح
لبته مصر وأدركته شام
في المغرب العربي عرق نابض
يذكره في حرب الخلاص ضرام
عز العروبة في حمى استقلالنا

أيطير مقصوص الجناح حمام
فالعروبة عند شاعرنا هي الشجرة الأم والجزائر
والشام ومصر والعراق وسائر البلاد العربية هي
أغصانها المتعانقة بحكم وحدة التاريخ والمصير
والنضال المشترك ضد الاستعمار ومن قبل ضد
الصليبيين ووحدة الدين واللغة والثقافة، والتطلع
إلى غد أكثر إشراقاً وحرية وعدلاً وأماناً، ومن ثم
يعد مفدى زكريا من أصدق دعاة الوحدة العربية
في الأقطار المغربية، إذ ترسم أمامه وهو ينظم
أشعاره الوطنية خارقة الوطن العربي من الخليج
إلى المحيط وحدة واحدة لا تتجزأ، وحدة جدية
بأسمى آيات التضحية دفاعاً عنها وصوناً لكيانها.

ويستحق مفدى أن ينال شرف نعته بالمدافع
الصلب عن الوحدة العربية، لا لما شدا به من قصائد
في هذا الغرض فحسب، بل بما بذل وضحي في
سبيل مبدئه القومي، متوجاً قوله بفعله، فلقد دفع
الثمن من حريته إذ زج به العدو من سجن إلى
سجن، فلم يجزع أو تهن عزيمته، بل زاده
الاضطهاد والتعذيب إيماناً بحرية وطنه وعرويته،
ولنستمع إلى صدى صوته من قاع الزنزانة رقم
٢٧٥ بسجن البرواقية بمناسبة الذكرى الرابعة
لثورة يوم فاتح نوفمبر ١٩٥٨م، وهو ينشد

لا السجن لا التنكيل لا الإعدام
لا الذاريات الماحقات هواطلا
لا الشامخات تدكها (الألغام)
لا القاصرات الغافلات كواعباً
ديست قداستها وقض ختام
لا الحاملات بطونها مبقورة
ذبحت أجنحتها وفك حزام
لا والمراضع عُوضت اثداؤها
بغم المسدس والرصاص فطام
وضعت فرنسا في الذللة بدعة
لم ترروها الأعصار وهي ظلام
يالجنة الأجيال أنت شهادة
أن التمدن للشورور لثام
والعدل زور والسلام خرافة
لغة تحلل باسمها الآثام

■ عود على بدء:

يتغنى شاعرنا مرة أخرى بانتماء الجزائر إلى
الإسلام والعروبة، فتحت رايتها تصدت كتاب
جيش التحرير للمستعمر مستلهمة مبادئها وأهدافها
وسلوكلها من الأصول الإسلامية وروح الشريعة،
جاعلة من الجهاد في سبيل إعادة البلاد إلى نهج
العروبة والإسلام مبدأ مقدساً آمن به رجالها إيماناً
لا يتزعزع، وقد بلغ من التزام المجاهدين بقديسية
التضحية والفداء التي نص عليها الكتاب والسنة
تنفيذ بعضهم - في حالات نادرة - حكم الإعدام في
أبناء وآباء وإخوة ثبتت في حقهم جريمة العمالة
والخيانة العظمى.

ومن ثم كان للدين الإسلامي الحنيف الباع
الطويل في شحذ الهمم والتفاف الشعب حول قادة
الفاث من نوفمبر بعد أن مهد العلماء المسلمون
الجزائريون للثورة بنشر العقيدة وبث الوعي
بمقاصدها، وعلى رأسهم الشيخان عبد الحميد بن
باديس ومحمد البشير الإبراهيمي اللذان استوعبا
جوهر الدين الحق، وحاربوا البدع والضلالات التي
أشاعها التخلف والاستعمار وعرفت باسم
«الطرقية»، كما قاوما النزعة (الإقليمية) المعادية
للعروبة والتي غرسها الفرنسيون، وبشرا بالجانب

قصيدة (اقرأ كتابك) وقد ألفت هذه القصيدة نيابة عنه في إذاعة (صوت العرب) بالقاهرة:

هذا (نفمبر) قم وحي المدفعا
واذكر جهادك والسنين الأربعا
واقرا كتابك لالانام مفصلا

تقرأ به الدنيا الحديث الأروعا
وقل الجزائر واصغ إن ذكر اسمها

تجد الجبابر ساجدين وركعا
إن الجزائر قطعة قدسية

في الكون لحنها الرصاص ووقعا
وقصيدة أزلية أبياتها

حمراء كان لها (نفمبر) مطالعا
نظمت قوافيها الجماجم في الوغى

وسقى النجيع رويها فتدفعها
غنى بها حر الضمير فأيقتل

شعبا إلى التحرير شمر مسرعا
وأراد المستعمرون عناصرا

فأبى مع التاريخ أن يتصدعا
واستضعفوه فقرروا إذلاله

فأبت كرامته له أن يخضعا
واستدرجوه فدبروا إدماجه

فأبت عروبوته له أن يُبلعا
وعن العقيدة زوروا تحريفه

فأبى مع الإيمان أن يتزعزعا
لقد كان شاعرنا في طليعة العلماء والأدباء في

عصره وله دراية عميقة بالتاريخ العربي الإسلامي
الذي جعل شعوب المشرق والمغرب نسيجا واحدا لا

انقسام له. ومن معين ذاكرة مفدى زكريا
ومطالعاته انسب نغمة على إيقاع القومية العربية.

فعاد إلى هذا اللحن في الأبيات الآتية:
وتعمدوا قطع الطريق فلم ترد

أسبابه بالعرب أن تتقطعوا
نسب بدنيا العرب زكى غرسه

ألم فأورق دوحه وتفرعا
سبب بأوتار القلوب عروقه

إن رن هذا رن ذاك ورجوعا
وينظم شاعرنا البلدان العربية مشرقا ومغربا في



■ أبو القاسم الشابي

سلك واحد كأنها عقد نظيم دلالة على وحدتها،
منوعا على لحن الفكرة التي أشار إليها ومفصلا لما
أجمل من قبل، وهي تجاوب هذه البلدان مع الجزائر
الثائرة في محنتها بالاستعمار وابتلائها بويلاته
وكفاحها في سبيل تحريرها من أغلاله التي أحكمها
حولها مائة وثلاثين عاما، وقد تمثل هذا التجاوب
في مداها بالمعونة ومناصرتها واستضافة أبنائها
غير القادرين على حمل السلاح، أو الذين طردهم
العدو الغاصب من ديارهم. وقد ورد ذكر
(الخضر) بين هذه البلدان والمقصود بها تونس إذ
يقرن اسمها دائما بهذه الصفة لجمال الطبيعة فيها.
والأبيات لوحة تشكيلية آية في البراعة الفنية من
حيث الصياغة والموسيقى، وتمتاز بحركة الصور
الرفافة التي تثير في النفس الشجى، وكأنها أصدا
متناوذة تحملها الرياح من موطن إلى آخر، وتتجلى
هذه الحركة في استعمال الأفعال الآتية التي تصدر
من حقل دلالي واحد: (رن) - رجع - تنهد - اهتز -
ارتج - هوت)

ويلاحظ اختيار الشاعر هذه الأفعال المضغفة فيما
عدا الفعل الأخير لا لتأكيد معناها وتقويته فقط،
ولما تحدثه من رنين وتصديع ينبئان عن انتشار
ثورة الجزائر في العالم العربي، وصوتها الجهير
في كل الأجواء، ووقع أناتها في كل القلوب،
وإيقاع الأسلحة التي تحارب بها في كل الأسماع،
كأنها سهيل الجياد الجامحة إذا اضطربت نيران
الوغى، أو تردد تكبيرات المؤذنين من أعلى المساجد
إذا كبر الثوار، أو سجع الحمائم إذا ناحت النساء
على مصرع الضحايا من أزواجهن ومن فلذات
الأكباد، أو صرخات المعذبين في السجون إذا ألهمت
ظهورهم وجنوبهم وصدورهم سياط البغاة
المتجبرين:

ما للجزائر ترجف الدنيا لها؟
والكون يُقعد حولها ويقام؟
ما للقيامه في الجزائر أرعدت؟
فغدا لها في الخافقين غمام؟

.....
إما تنهد في الجزائر مُوجع

■ نادى
مفدى
بالوحدة
العربية
في
الأقطار
المغربية..
وكان
أصدق
دعاتها.

أما الجزء الثاني فقد صاغه الشاعر على لسان فلسطين، فهو ينزف أسى ولكنه يسمو كبرياء. وفيه يكشف مفدى دون مواربة ولا رياء عن أسباب المحنة. فالعربي الذي يبكي فلسطين هو الطاعن والطعن، هو الجرح والسكين. وقبل أن ندين غيرنا علينا أن نظهر أنفسنا، تلك شريعة الحق والعدل. وليس هناك طريق بديل.

لقد كان لي سبب للبقاء
فقطعت قومي أسبابيه
ورحت أبيع وأشترى كما
تباع لجزائها المشائية
وأشنى في حبل مستعمري
وأصلب في كف جلالديه
وفرقتني الخلف أيدي سببا
وشئت في الأرض أوصاليه
فأصبحت أرسف في محنتي
وقومي عن محنتي لاهيه
هو الشعب لا السادة المترفون
يحقق للنصر أحلاميه
ويستفز الشاعر النخوة العربية بذكر الأمجاد التاريخية التي خلدها أبطال العرب خالد ابن الوليد وسعد بن أبي وقاص وصالح الدين الأيوبي في القادسية وحطين وأنطاكية. ويختتم مفدى زكريا قصيدته بالأمل بل بالثقة في النصر:
ولن يخلف الله ميعاده
ولا ريباً ساعتنا آتيه

■ ■ ■ ويعد..

فهذا غييض من فيض، وإطالة عابرة على قصائد مفدى زكريا شاعر الثورة التحريرية التي ضمنها ديوانه «اللهب المقدس» وقد نشر بعضها في ديوانه الثاني (في ظلال النخيل) وحزمة ضوئية على عالمه الخصب المثير للرؤى والتأملات، والذي يدل على موهبة فذة وقريحة وقادة وسعة أفق يستحق بها أن يعد واحدا من كبار الشعراء العرب في العصر الحديث عامة ومن كوكبة شعراء مدرسة الإحياء خاصة.

آسى الشأم جراحه وتوجعا
واهتز في أرض الكنانة خافق
وأقض في أرض العراق المضجعا
وارتج في الخضراء شعب ماجد
لم تثنه أرزأوه أن يفزعا
وهوت مراكش حوله وتألمت
لبنان واستعدت جديس وتبعها

كما يلاحظ ترديد الشاعر لاسم الجزائر وثورتها في هذه القصيدة وفي سائر أشعاره، شأن العشاق في التلذذ بتكرار أسماء حبيباتهم أو مواطنهم والتعبير عن حنينهم لها

■ ■ ■ في ملحة فلسطين:

تتوج ملحمة الشعر النضالي الذي استوحاه من إيمانه بالوحدة العربية ودعوته إلى الدفاع عن شعوبها المكافحة بقصيدته «فلسطين على الصليب»، وهي حوار بين الشاعر وفلسطين والعرب بمناسبة الذكرى الثالثة عشرة لتقسيم فلسطين.

وهي من أروع منجزاته الشعرية صياغة ومضمونا، ولعل قسوة الجرح الفلسطيني وفداحة النكبة كانا من وراء حرارة النغم الذي شدا به هذا الشاعر الموهوب المرهف الحس الأصيل الانتماء، وهو يفتتح الجزء الأول من القصيدة ببناء جياش موجع يثير كل المواجد:

أناديك في الصرصر العاتيه
وبين قواصفها الذارية
وأذكر جرحك في حربنا
وفي ثورة المغرب القانيه
فلسطين يا مهد الأنبياء
ويا قبلة العرب الثانية
ويا حجة الله في أرضه
وياهبة الأزل السامية
ويا قدسا باعه آدم
كما باع جنته العالية

□□□